أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ

(من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم)

ابن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب ابن مكحول بن عمرة بن الحارث بن عمرو بن مالك بن ابي مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمرة بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح ، ابو المظفر بن ابي سلامة بن ابي الحسن بن ابي المتوح الكناني الشيزري ، الملقب مؤيد الدولة .

ولد بشيزر ونشأ بها واخرجه عمه ابو العساكر سلطان بن علي خوفا منه على نفسه ، لما رأى من شجاعته واقدامه ، وقدم حلب مرارا متعددة ، وكان من الأمراء الفضلاء الأدباء الشعراء الشجعان الفرسان ، له مصنفات عديدة ومجاميع مفيدة ، ومواقف مشهورة ، ووقائع مذكورة ، وفضائل مسطورة .

روى عن ابي الحسن علي بن سالم بن الأغر بن علي السنبسي وابنه كامل بن علي ، ومؤدبه أبي عبد الله محمد بن يوسف بن المنيرة الكفرطابي ، ووالده ابي سلامة مرشد بن علي بن منقذ ، وأبي عبد الله محمد بن شافع بن الحسين بن العرار ، سمعهم بشيزر ، وابي بكر محمد بن مخلد بن عبد الله بن مخلد التميمي الاشبيلي ، سمعه بمصر ، والخطيب يحيى بن سلامة الحصفكي (٧٥) سمعه بميافارقين ، وأبي هاشم محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر ، سمعه بحماه ، وأبي القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الدولعي خطيب دمشق ، سمعه بدمشق ، وآخرين غيرهم ، وروى بالاجازة عن ابي الحسن علي بن أحمد بن قيس الغساني .

روى عنه الحافظان ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي ، وابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني ، وعماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني

الكاتب ، وعبد السلام بن يوسف الدمشقي ، وابو البركات محمد ابن محمد بن علي قاضي اسيوط ، والشريف ابو القاسم عبد الله بن علي بن زهرة الحلبي ، وولده العضد مرهف بن اسامة بن منقذ ، وجماعة غيرهم .

روى لنا عنه أبو اسحق ابراهيم بن شاكر بن عبد الله بن سليمان ، وأبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي القرطبي ، وابو محمد عبد الله بن عمر بن علي الحموي ، والحكيم ابو القاسم هبة الله بن صدقة الكولمي ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الكافي بن علي الربعي ، وأبو علي الحسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي وابو المعالي محمد بن الحسين بن اسعد بن العجمي .

أخبرنا القاضي بهاء الدين ابو اسحق ابراهيم بن ابي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ـ قراءة عليه بداره بدمشق ـ ، والشيخ تاج الدين أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي القرطبي الدمشقي بها ، وشمس الدين ابو عبد الله محمد بن الكافي بن علي الربعي ، قاضي حمص بحلب وبدمشق ، وأبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولمي بالقصر الغربي بالقاهرة ، قالوا: أخبرنا مؤيد الدولة ابو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكناني قال :أخبرنا الشيخ ابو الحسن علي بن سالم بن الأغر بن علي السنبسي بثغر شيزر سنة تسع وتسعين واربعمائة قال : اخبرنا الشيخ ابو صالح محمد بن المهذب بن علي قال : حدثنا جدي ابو الحسين علي بن المهذب بن أبي حامد قال :حدثنا ابو حامد بن همام قال : حدثنا محمد بن سليم القبرسي قال : حدثنا ابراهيم بن هدبة عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ألا من بكى على ذنب في الدنيا حتي تسيل الدموع على حر وجهه حرم الله بيباح وجهه على جهنم »٠(٧٦)

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي

قال:(٧٧) أخبرنا ابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني الامام قال : أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الشيزري ، أبو المظفر المعروف بمؤيد الدولة من أهل شيزر ، قلعة بالشام من الثغر ، أمير فاضل غزير الفضل ، وافر العقل ، حسن التدبير مليح التصانيف ، عارف باللغة والأدب ، مجود في صنعة الشعر ، من بيت الامارة والفروسية واللغة ، سكن دمشق ، لقيته بالفوار (٧٨) بظاهر دمشق بحوران واجتمعت معه بدمشق عدة نوب ، وكان مليح المجالسة حسن المحاورة ، كثير المحفوظ ، كان يقول لي : كنت أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية ، علقت عنه من شعره شيئا ، وقال لي : دخلت بغداد وقت محاربة دبيس بن صدقة مع المسترشد بالله ، قال : ونزلت الجانب الغربي عند باب البصرة وما عبرت الى شرقيها ، سألته ـ أعني أبا المظفر ـ عن مولده ، فقال : ولدت في سنة سبع أو ثمان وثمانين واربعمائة ـ أنا الشاك .

أخبرنا زين الأمناء أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن فيما أذن لنا في روايته عنه قال : اخبرنا عمي الحافظ ابو القاسم على بن الحسن ، قال : اسامة بن مرشد بن علي بن المقلد ، بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم أبو المظفر الكناني الملقب بمؤيد الدولة ، له يد بيضاء في الأدب والكتابة والشعر ، ذكر لي انه ولد سنة ثمان واربعمائة ، وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وخدم بها السلطان ، وقرب منه وكان شجاعا فارسا . ثم خرج الى مصر ، فأقام بها مدة ، ثم رجع الى الشام ، وسكن حماة ، واجتمعت به بدمشق ، وأنشدني قصائد من شعره سنة ثمان وخمسين وخمسمائة (٧٩).

قرأت بخط مؤيد الدولة اسامة في كتابه الموسوم «بأزهار الأنهار» (٨٠) وقد أجاز روايته مع غيره لجماعة اجازوا لنا ذلك عنه منهم : الشيخ ابو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان قال : ومما يخصني من

غرائب اللبن انني حين ولدت التمس لي من يرضعني ، فقدر الله سبحانه الرزق من امرأة كبيرة قد نيفت عن الستين سنة ، ليس لها ولد صغير ، فدرت على وارضعتني الى حين فطمت وعاشت بعد فطامي نحوا من خمس عشرة سنة وكانت رحمها الله متى عصرت ثديها طار منه اللبن كأنها مرضعة .

أنبأنا الحسن بن محمد قال : أخبرنا أبو القاسم بن أبي محمد قال : قال لي أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الملحي : الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ شاعر اهل الدهر ، مالك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطبقة أبيه ، ليس يستقصي وصفه بمعان ، ولا يعبر عن شرحها بلسان ، فقصائده الطوال ،لايفرق بينها وبين شعر ابن الوليد(٨١) ولا يذكر على منشدها نسبتها الى لبيد ، وهي على طرف لسانه بحسن بيانه غير محتفل في طولها ، ولا يتعثر لفظه العالي في شيء من فصولها والمقطعات فأحلى من الشهد ، وألذ من الذوم بعد طول السهد في كل معنى غريب وشرح عجيب .

قلت: ولم يذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه احدا ممن تأخرت وفاته عن وفاته غير اربعة او خمسة ، أبو المظفر اسامة بن منقذ هذا أحدهم ، وذلك لجلالته عنده ، وعلو منزلته .

وأنبأنا محمد بن اسماعيل بن عبد الجبار بن ابي الحجاج المصري قال : اخبرنا عماد الدين ابو عبد الله محمد بن محمد حامد الكاتب الأصبهاني في كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر » تأليفه ، قال : اسامة كإسمه في قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه امارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضة عمارة العبارة ، نشر له علم العلم ، ورقي سلم السلم ، ولزم طريق السلامة وتنكب سبل الملالة والملامة ، واشتغل بنفسه ، ومجاورة ابناء جنسه ، حلو المجالسة حالي المساجلة ، ندي الندى بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق

الغوطة دمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما ينبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر ،(٨٢) فبقي بها مؤمرا ، مشارا اليه بالتعظيم الى ايام ابن رزيك ، فعاد الى الشام ، وسكن دمشق مخصوصا بالاحترام حتى أخذت شيزر من اهله (٨٣) ورشقهم صرف الزمان بنبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا مقيما بها في ولده ، مؤثرا بلدها على بلده حتى اعاد الله سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة سبعين ، ولم يزل مشغوفا بذكره ، مستهترا بأشعة نظمه ونثره ، والأمير العضد مرهف ولد الأمير مؤيد الدولة جليسه وأنيسه ، فاستدعاه الى دمشق ، وهو شيخ قد جاوز الثمانين.

وكنت قد طالعت منيل السمعاني ، فوجدته قد وصفه وقرظه ، وأنشدني العامري له بأصبهان من شعره ما حفظه ، وكنت ابدا أشتهي لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، وسألته عن مولده فقال : يوم الأحد سابع عشري جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين واربعماية (٨٤).

وقرأت في كتاب «أنموذج الأعيان » لعبد السلام بن يوسف الدمشقي بخطه قال : الأمير الأوحد ، العالم ، مجد الدين ، مؤيد الدولة ، أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الشيزري الكناني ، مبرز في علم الأدب ، عريق في النسب ، من بيت التقدم والامارة والسيادة في البداوة والحضارة ، مع عقل كامل وافر ، ورأي وجه العواقب عنده سافر ، لم يزل موصوفا بالاقدام والشجاعة ، معروفا باللسن والبراعة ، لقيته بدمشق في شهر جمادى الآخرة سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، واخبرني ان مولده في ثالث عشري جمادى الآخرة ، يوم الأحد ، سنة ثمان وثمانين واربعمائةوأنشدني من نظمه ما يضاهي نظام اللآلي ، ويكون قلادة في جيد الأيام والليالي .

قلت: كان في الأصل بخط عبد السلام بن يوسف سابع عشري

جمادى ، فضرب بخطه على سابع وكتب فوقه ثالث ، والذي يظهر لي ان المضروب عليه هو الصحيح .

وقرأت في كتاب الاعتبار تأليف أسامة بن مرشد : ولدت أنا وهو - يعني ابن عمه سنان الدولة شبيب بن حامد بن حميد - في يوم واحد ، يوم الأحد سابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين واربعمائة .

أخبرني ابو المعالي محمد بن الحسين بن أسعد بن عبد الرحمن الحلبي قال : سمعت اسامة بن مرشد بن منقذ ، مؤيد الدولة ، يحكي لنا بدمشق ان سبب اخراج عمه اياه من شيزر انه قتل اسدا ضاريا بناحية شيزر فأخرجه عمه - يعني ابا العساكر سلطان بن علي - منها خوفا على على نفسه منه. وقال لنا: جاء الخبر الى عمي بأن في بعض نواحي شيزر أسدا ضاريا قد آذى الناس في طريقهم ، فتقدم عمي الى عسكره كلهم ان يركبوا بكرة الغد من ذلك اليوم الذي تقدم اليهم للتأهب للقاء الأسد وقتله .

وقال: فاستدعيت غلامي وامرته باسراج دابتي وأخذ رمحي معه ، وركبت انا والغلام في اليوم الذي أمر عمي بالتأهب له ، وخرجت وغلامي معي حتى اتيت الموضع الذي فيه الأسد ، فخرج الأسد وحمل على فقاتلته وصرعته ، ونزلت اليه فقطعت رأسه ، وناولته الغلام ، وأمرته بتسميطه معه على الدابة التي تحته ، ودخلت شيزر وبت بها ، فلما أصبح الصباح ركب عمي وعسكره ، وخرجوا يطلبون الأسد ، فوجدوا جثته مطروحة بلا رأس ، فعجبوا من ذلك ، وأنا ساكت لا أتكلم .

قال : وتحدث غلامي مع الغلمان بذلك فشاع بينهم حتى علم عمي به ، فرجع ودخل شيزر ، وصعدنا على العادة الى قلعتها وبتنا تلك الليلة ، فقام عمي نصف الليل ، وطلبني، وأمر من أسرج له مركوبا ، وأمرني بالركوب وقال : أريد ان تجيء معي الى موضع

سماه خارج شيزر في شغل ، فـركبت معـه حتـى ابعـدني عن شيزر ، ثم قال لي : يا بن اخي شيزر لك فهبها لي ، فوالله ما بقيت أقدر على مساكنتك ، ولم يأخذني في هذه الليلة نوم من شدة فـكري فيك ، إذا كان فعلك مع الأسد هذا الفعل فايش يكون معي لو سولت لك نفسك ان تفتك بي ؟ ومنذ رجعـت الى القلعـة ليس لي فـكر الا فيك ، ولم يأخذني نوم في ليلتي هـذه ولا قـرار الى أن بـادرت الى اخراجك فما اقدر ان اساكنك وانت على هذه الصفة!

قال : فامتثلت أمره ، وودعني ، وعاد الى شيزر ،قال: فخرجت منها وأقمت في مكان سماه لنا شذعني اسمه .

قلت: والى هذا اشار في قوله ، وقد أسن وأرعشت يده ، وكتب خطا مضطرب الحروف .

فاعجب لضعف يد عن حملها قلما

من بعد حطم القنا في لبه الأسد (٨٦)

أنشدنا افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بـن عبـد المطلب الهاشمي قال : أنشدنا تاج الاسلام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني ، ح .

ثم أنشدني تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر أحمد بـن علي الفنكي بدمشق قالا : أنشدنا أسامة بـن مـرشد بـن منقـذ الشيزري لنفسه :

يادهر مالك لايصـ
ـدك عن مساءتي العتاب
أمرضت من أهوى ويأ
بى أن أمرضه الحجاب

لو كنت تنصف كانت الا
مراض لي وله الثواب (٨٧)

قال العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب الاصفهاني ـ وقد أورد لاسامة هذه الابيات في خريدة القصر : قد قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر مخترع بديه ، ومبتدع فكر ، الا أن هذه الابيات لطيفة المعنى ، ظريفة المغزى ، مقصدها سهيل ، ومواردها سهل ، ولو سمعتها في البادية عقيل لم يثبت لها عقل . ولا شك ان حبيبته عند استذشاق هوائها فاز ببرو مهجته وشفائها (٨٨)

أنشدنا أبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي القرطبي قال : أنشدني أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ الكناني لنفسه :

اذا الصب اشفى من جواه على شفا
أتى الياس مما يرتجي بشفائه
وقد زادني يأسي سقاما فكيف
بالشفاء لصب داؤه في دوائه(٨٩)

أنشدني أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل النيلي قال : انشدنا مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ لنفسه في كتاب العصا :

حناني الدهر وأب
ـلتني الليالي والغير
فصرت كالقوس ومن
عصاي القوس وتر
أهدج في مشيي وفي
خطوي فتور وقصر (٢٠٩ ـ ظ)

كأنني مقيد
وانما القيد الكبر
والعمر مثل الكأس في
لخره يبقى الكدر (٩٠)

اذشدنا محمد بن أحمد بن علي بدمشق قال : أذشدني أبو المظفر أسامه بن مرشد بن منقذ لنفسه في ضرس قلعه .

وصاحب صاحبني في الصبا
حتى ترديت رداء المشيب
لم يبد لي ستين حولا ولا
بلوت من أخلاقه مايريب
أفسده الدهر ومن ذا الذي
يحافظ العهد بظهر المغيب
ثم افترقنا لم اصب مثله
عمري ومثلي أبدا لايصيب
فأعجب لها من فرقة باعدت
بين أليفين وكل حبيب (٩١)

اذشدني الحكيم أبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولي بالقاهرة قال : اذشدنا مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ لنفسه بدمشق في سنة اربع وثمانين وخمسمائة في ضرس قلعه :

وصاحب صاحبته
ستين حولا مارأيته
حتى اذا عاينته
عاينت منه ماأبيته
والهجر فيه ـ راحة
من كل مصحوب قليته

وأنشدنا الحكيم أبو القاسم المذكور قال : أنشدنا مؤيد الدولة اسامة بن منقذ لنفسه في مثله .

وصاحب لاتمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

قال العماد الكاتب ـ وأوردهما في الخريدة ، لو أنصفت فهمك ان كنت منتقدا وترقيت عن مرقب وهمك مجتهدا ، وغصت بنظر فكرك في بحار معانيه لغنمت من فرائد درره ولآليه . ولعلمت اذا لم يكن هكذا فلغو ، وأنه اذا لم يبلغ هذا الحد من الجد فهجر ولهو ، ومن الذي أتى في وصف السن المقلوع بمثل هذا الفن المطبوع ، فهل سبقه أحد الى معناه ، وهل في هذا النمط ساواه (٩٢)

أنشدنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الحلبي قال : أنشدنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني ، ح .

وأنشدنا محمد بن أحمد بن علي الفنكي قالا : انشدنا أبو المظفر أسامة بن علي الكناني لنفسه :

لم يبق لي في هواكم أرب
سلوتكم والقلوب تنقلب

أوضحتم لي سبل السلو وقد

كانت لي الطرق عنه تنشعب

إلام دمعي من هجركم سرب
قان وقلبي من غدركم يجب

ان كان هذا لأن تعبدني السحـ
ـبا فقد اعتقني الريب

أحببتكم فوق ماتوهمه الـ
ـخلق وخنتم أضعاف ماحسبوا (٩٣)

أورد أبو عبد الله محمد بن محمد الكاتب هذه الأبيات في الخريدة وقال : تأمل معاني هذه الأبيات بعين التأني والثبات تعرف أن قائلها من ذوي الحمية ، والنفوس الأبية ، والهمم العلية وكل من يملكه الهوى ويسترقه قلما يطلقه السلو ويعتقه ، الا أن يكون كبيرا غلب عقله هواه ، واستهجن في الشهوات المذمومة نيل مناه ، وقول « قد أعتقني الريب » في غاية الجودة ، ونهاية الكمال ، أعذب من الزلال ، وأطيب من الحلال ، والعب بقلوب المتيمين من نسيم الشمال (٩٤)

أنشدنا شيخ الشيوخ تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن حموية قال : انشدنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد ابن علي بن مقلد بن منقذ لنفسه :

أيا تاج فرسان الهياج ومن بهم
ثبتت أواخي ملك كل متوج
قوم اذا لبسوا الحديد عجبت من
بحر يدافع في لظى متوهج (٩٥)

أنشدنا أبو الحسن بن أبي جعفر قال : أنشدنا أبو المظفر أسامة ابن مرشد لنفسه وقالها على لسان الشيخ ابي صالح بن المهذب رحمه الله ، وكانت فيه حدة مع فضل وعلم وتقي ، وكان نزل بشيزر فريق من العرب معهم جارية اسمها شوق مستحسنة ، وكتب الأبيات ورمى بها نسخا بشيزر ، فوقع منها بيد الشيخ أبي صالح رحمه الله ، فقامت قيامته ، ولم يدر أحد من عمل الأبيات ، فقال له

الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة رحمه الله ، وهو مؤدبه هذه الأبيات التي قد رميت ما يحسن يقولها الا أنا ، أو القاضي أبو مرشد بن سليمان ، أو أنت ، وأنا وأبو مرشد ماقلناها وماقالها غيرك ، وهي .

قولا لريم في حلة العرب
اليك اشكو ، ما يصنع اسمك بي
بم استجازت عيناك سفك دمي
وأخذ قلبي في جملة السلب
لولاك والدهر كله عجب
ماخفرت في ذمة العرب
جارك أولى برعي ذمته
إن أنت راعيت حرمة الصقب
هذا هوى كنت في بلهنية
عنه فيا للرجال للعجب
ايسترق الكريم ذا النسب ال
واضح عبد مستعجم الذسب
ويحمل الثأر من به خور
عن احتمال الحجال والقلب
نشدتك الله في احتمال دمي
فمعشري مايفوتهم طلبي
مافات قومي آل المهذب من
قبلي ثار في سالف الحقب
فلا تريقي دما لذي ادب
يسطو بأقلامه على القضب (٩٦)

قلت : هذا أبو صالح ابن المهذب ليس هو ابو صالح الكبير محمد ابن المهذب بن علي بن المهذب فإن اسامة لم يدرك زمنه لأنه توفي سنة خمس وستين وأربعمائة وهذا غيره ، ذكرنا ذلك لئلا يلتبس به .

أنشدنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن حموية قال : انشدنا اسامة بن منقذ لنفسه :

اساكن قلبي والمهامه بيننا
وانسا عيني والمزار بعيد
تمثلك الأشواق لي كل ليلة
فهي جديد والفراق مديد (٩٧)

أنشدنا محمد بن أبي جعفر بن علي قال : انشدنا اسامة لنفسه :

ابى لي ان أبالي بالرزايا
فؤاد لايروع بالخطوب
ونفس لاتسف لمستفاد
ولاتأس على وفر سليب
وعلمي أن ماأهوى وأخشى
يزول بغير شك عن قريب (٩٨)

انشدنا الامام أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي قال :

يارب ان اساءتي قد سودت
بيد الكرام الكاتبين صحائفي
والخوف منك ومن عقابك مقلقي
فارحم مخافة ذي الفؤاد الراجف
من خاف شيئا فر منه هاربا
واليك منك مفر عبد خائف (٩٩)

وانشدنا محمد بن أحمد بن علي القرطبي قال : انشدنا اسامة ابن مرشد لنفسه .وكتبها على كتاب نسخه :

- ٥٥٥٦ -

يارب حسن رجائي فيك حسن لي
تضيع وقتي في لغو وفي لعب
وأنت قلت لمن اضحى على ثقة
بحسن عفوك إني عند ظنك بي (١٠٠)

قال لي أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي :توفي اسامة بن مرشد بن منقذ بدمشق في سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، قال : وفيها دخلت دمشق .

أنبأنا الحافظ أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري قال - في ذكر من توفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة « في كتاب التكملة لوفيات النقلة » : وفي ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان توفي الأمير الأجل مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن أبي سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري بدمشق ، ودفن من الغد بجبل قاسيون ، وكان مولده بشيزر في يوم الأحد السابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقيل في شهر رمضان منها ، حدث عن أبي الحسن علي بن سالم السنبسي وغيره ، سمع منه الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني ، وأبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي وأبو المواهب الحسن بن هبة الله بن صصرى ، وأبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد ، وحدثنا عنه ولده الأمير الأجل أبو الفوارس مرهف وغيره ، وهو من بيت الامارة والشجاعة ، وله اليد البيضاء في اللغة والكتابة والشعر ، وله مصنفات مشهورة وكان مشهورا بالشجاعة والاقدام ، ودخل بغداد ، والموصل ، ودمشق ومصر (١٠١)

أبو المظفر اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن
نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري الملقب مؤيد
الدولة مجد الدين

من وفيات الأعيان لابن خلكان

من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم ، وشجعانهم له تصانيف عديدة في فنون الأدب.ذكره أبو البركات بن المستوفي في تاريخ إربل ، وأثنى عليه وعده في جملة من ورد عليه ، وأورد له مقاطيع من شعره ، وذكره العماد الكاتب في الخريدة ، وقال بعد الثناء عليه : سكن دمشق ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر فبقي بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم الى أيام الصالح بن رزيك ، ثم عاد الى الشام ، وسكن دمشق ثم رماه الزمان الى حصن كيفا فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

وقال غير العماد : إن قدومه مصر كان في ايام الظافر بن الحافظ والوزير يومئذ العادل بن السلار فأحسن اليه وعمل عليه حتى قتل حسبما هو مشروح في ترجمته .

قلت ثم وجدت جزءا كتبه بخطه الرشيد بن الزبير حتى يلحقه بكتاب الجنان وكتب عليه أنه كتبه بمصر سنة احدى وأربعين وخمسمائة ، فيكون قد دخل مصر في أيامه ، وأقام بها حتى قتل العادل بن السلار اذ لاخلاف أنه حضر هناك وقت قتله.وله ديوان شعر في جزئين موجود في أيدي الناس ورأيته بخطه ونقلت منه قوله :

لاتستعر جلدا على هجرانهم
فقواك تضعف من صدود دائم
وأعلم بأنك ان رجعت اليهم
طوعا والا عدت عودة راغم

ونقلت منه في ابن طليب المصري وقد احترقت داره

انظر الى الأيام كيف تسوقنا
قسرا الى الاقرار بالأقدار
ماأوقد ابن طليب قط بداره
نارا وكان خرابها بالنار

ومما يناسب هذه الواقعة أن الوجيه بن صورة المصرى دلال الكتب ، كانت له بمصر دار موصوفة بالحسن ، فاحترقت فعمل ذشء الملك أبو الحسن علي بن مفرج المعروف بابن المنجم المعري الأصل المصري الدار والوفاة :

اقول وقد عاينت دار ابن صورة
وللنار فيها مارج يتضرم
وكذا كل مال أصله من مهاوش
فعما قليل في نهابر يعدم
وماهو الا كافر طال عمره
فجاءته لما استبطأته جهنم

والبيت الثاني مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم :« من أصاب مالا من مهاوش أذهبه الله في نهابر » والمهاوش الحرام والنهابر المهالك ، والوجيه المذكور هو أبو الفتوح ناصر بن أبي الحسن علي ابن خلف الأنصاري المعروف بابن صورة ، وكان سمسارا في الكتب بمصر ، وله في ذلك حظ كبير ، وكان يجلس في دهليز داره لذلك ، ويجتمع عنده في يوم الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء والفضلاء ، ويعرض عليهم الكتب التي تباع ولا يزالون عنده الى انقضاء وقت السوق ، فلما مات السلفي سار الى الاسكندرية لبيع كتبه ، ومات في السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستمائة بمصر ، ودفن بقرافتها رحمه الله تعالى .

ولابن منقذ من قطعة يصف ضعفه :

فأعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القناني لبة الأسد

ونقلت من ديوانه ايضا ابياتا كتبها إلى أبيه مرشد ، جوابا عن أبيات كتبها أبوه اليه وهي :

وما أشكو تلون أهل ودي
ولو أجدت شكيتهم شكوت
مللت عتابهم ويئست منهم
فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارضهم فؤادي
كظمت على اذاهم وانطويت
ورحت عليهم طلق المحيا
كأني ماسمعت ولارأيت
تجذو إلي نذوبا ماجنتها
يداي ولاأمرت ولانهيت
ولا والله ماضمرت غدرا
كما قد أظهروه ولاذويت
ويوم الحشر موعدنا وتبدو
صحيفة ماجذوه وماجنيت

وله بيتان في هذا الروي والوزن كتبهما في صدر كتاب الى بعض أهالي بيته ، في غاية الرقة والحسن وهما :

شكا ألم الفراق اناس قلبي
وروع الذوى حي وميت
وأما مثل ماضمت ضلوعي
فاني ماسمعت ولارأيت

والشيء بالشيء يذكر ، أنشدني الأديب أبو الحسن يحيى بن عبد العظيم المعروف بالجزار المصري لنفسه في بعض أدباء مصر ، وكان شيخا كبيرا وظهر عليه جرب فالتطخ بالكبريت قال : فلما بلغني ذلك كتبت اليه :

أيها السيد الأديب دعاء
من محب خال من التذكيت

- ٥٥٦٢ -

أنت شيخ وقد قربت من النا
ر فكيف ادهنت بالكبريت

ونقلت من خط الأمير أبي المظفر اسامة بن منقذ المذكور لنفسه ، وقد قلع ضرسه وقال : عملتهما ونحن بظاهر اخلاط وهو معني غريب ويصلح أن يكون لغزاني الضرس :

وصاحب لاأمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

قال العماد الكاتب وكنت أتمنى أبدا لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة أحدى وسبعين ، وسألته عن مولده فقال : يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، قلت: بقلعة شيزر ، وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، بدمشق رحمه الله تعالى ، ودفن من الغد شرقي جبل قاسيون ودخلت تربته وهي على جانب نهر يزيد الشمالي وقرأت عنده شيئا من القرآن وترحمت عليه .

وتوفي والده ابو اسامة مرشد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة رحمه الله تعالى .

وشيزر - بفتح الشين المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها زاء مفتوحة ثم راء - قلعة بالقرب من حماة وهي معروفة بهم وسيأتي ذكرها في حرف العين عند ذكر جده علي بن مقلد ان شاء الله تعالى .

اسامة بن منقذ

من المقفى الكبير للمقريزي

اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب بن مكحول بن عمرو بن الحارث بن عامر بن مالك بن أبي مالك بن عوف بن كنانة ابن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، أبو المظفر ، مؤيد الدولة الشيزري .

مولده :

ولد يوم الأحد سابع عشرين جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة - وقيل : ثالث عشرينه ، وقيل : في شهر رمضان منها - والأول هو الصحيح وكانت ولادته بقلعة شيزر .

وتوفي بدمشق في ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، ودفن من الغد بجبل قاسيون .

وهو من أكابر بني منقذ اصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم ، وله تصانيف عديدة في فنون الأدب ، وله ديوان شعر في جزءين .

وانتقل من شيزر الى دمشق فسكنها مدة ، ثم سار منها الى مصر في خلافة الحافظ لدين الله هو واخوته ابو المغيث منقذ ، وشرف الدين مرشد وأولادهم ، والوزير نظام الدين أبو الكرام محسن ، لاستيحاشهم من الأتابك معين الدين أنر لجير الدين أبق صاحب دمشق ، وخوفهم منه ، وقدموا في جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فاستمر بها الى أن ولي العادل بن السلار الوزارة ، فاختص به .

تحريضه على قتل الظافر :

فلما خرج العسكر من القاهرة لحفظ عسقلان من الفرنج في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وعليه عباس بن تميم ربيب الوزير العادل علي بن السلار ، ومعه من أمراء الدولة ملهم والضرغام وأسامة بن منقذ هذا ، وكان خصيصا بعباس ، ونزلوا على بلبيس ، تذاكر عباس واسامة مصر وطيبها وماهم خارجون اليه من مقاساة السفر ولقاء العدو ، فتأوه عباس أسفا على مفارقة مصر وأخذ يثرب على العادل كونه جرده ، فقال له اسامة : لو أردت كنت أنت سلطان مصر .

فقال : كيف لي بذلك .

فقال : هذا ولدك نصر بينه وبين الخليفة - يعني الظافر - مودة عظيمة ، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع عمك فانه يحبك ويكرهه ، فإذا أجابك فاقتل عمك .

فوقع كلامه من عباس بموقع ، وجهز ابنه الى الخليفة ، وكان من قتل ابن السلار وولاية عباس الوزارة ماتقدم في موضعه .

فلما استقل عباس بوزارة الخليفة الظافر ، وكره اختلاط نصر ابن عباس بالخليفة الظافر ، ثقل اسامة على امراء مصر ، واستوحشوا منه لعلمهم أنه هو الذي دبر قتل ابن السلار وتحدثوا بقتله ، وخيلوا للظافر منه كونه من أهل الشام ، وهواه مع بني العباس ، ومتى ترك وقع منه مالايتدارك ، وبلغه ذلك فخاف من الظافر ، وأخذ في الحيلة لنفسه ، وشرع يدبر في فتنه أخرى ، فأغرى عباس الوزير بابنه نصر ، وبالغ حتى قال له يوما : كيف تصبر على مايقول الناس في حق ولدك ، ومن أن الخليفة يفعل به مايفعل بالنساء ؟

فغضب عباس من ذلك وطلب ابنه وعنفه فلم يصغ لقوله واستمر على معاشرة الخليفة الى أن انعم عليه بناحية قليوب ، فقال له أسامة بحضرة ابيه: ما هي بمهرك غالية!

فامتعض عباس وشق عليه هذا القول ، وقال لأسامة : كيف الحيلة في الخلاص مما بلينا به ؟

فقال : هين ! هذا الخليفة يأتي في كل وقت إلى بيت ولدك خفية ، فمره إذا جاءه أن يقتله .

فما زال عباس بابنه نصر حتى قتل الخليفة كما ذكر في ترجمته .

فلما أقام عباس الفائز عيسى في الخلافة بعد قتل الظافر ، وقدم طلائع بن رزيك من الاشمونين لأخذ ثأر الظافر آل أمر عباس إلى أن فر من القاهرة ، هو وولده نصر ، وأسامة ، في عدة من أصحابهم ، بعدما نهب لأسامة عند خروجه من مصر أربعون غرارة(١٠٩) جمالية مخاطة فيها من الذهب والفضة والكسوة شيء كثير ، وأخذ من اصطبله ستة وثلاثون حصانا وبغلة بسروجها ولجمها وعدتها ، وخمسة وعشرون جملا ، وأخذ من إقطاعه بكوم اشبين مائتا رأس بقر لبساتينه وأوسيته ، وأهراء غلة .

هروبه من الافرنج وخذلانه العباس :

فخرج عليهم الافرنج ، ففر أسامة وتبعه أصحابه ، وتركوا عباسا وابنه حتى قتل عباس وأسر ابنه نصر في يوم الجمعة خامس شهر ربيع الاخر ، وسار أسامة إلى دمشق في سنة تسع واربعين وخمسمائة فاقام بها .

ثم رماه الزمان الى حصن كيفا فاقام به حتى ملك السلطان

صلاح الدين يوسف دمشق ، فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

قال فيه العماد الكاتب : وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف .

شعره :

ومن شعره في قلع ضرسه :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها
حتى إذا مات خلاها وما فيها

وقال :

لأرمين بنفسي كل مهلكة
مهولة يتحاماها ذوو الباس
حتى أصادف حيني فهو أجمل بي
من الخضوع وأستغني عن الناس

وقال قصيدته المشهورة التي كتبها إلى دمشق بعد خروجه منهـا الى مصر يعتب على الأمير معين الدين أنر ، وهي من غرر القصائد:

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا ولا اطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
فليت شعري ، بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدهم عن وصلي السأم
حفظت ما ضيعوا ، أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم
ما الرزق الا الذي يجري به القلم
محاسني منذ ملوني باعينهم
قذى ، وذكري في آذانهم صمم
وبعد ، لو قيل لي : ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا ؟ لقلت : هم
هم مجال الكرى من مقلتي ، ومن
قلبي محل المنى ، جاروا أو اجترموا
تبدلوا بي وما أبغي بهم بدلا
حسبي بهم أنصفو في الحكم أو ظلموا
ياراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم
بلغ أميري معين الدين مألكة
من نازح الدار ولكن وده أمم
وقل له : أنت خير الترك فضلك
الحياء والدين والإقدام والكرم

وانت أعدل من يشكى إليه ، ولي
شكية انت فيها الخصم والحكم

هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم

يضيع واجب حقي بعدما شهدت
به النصيحة والاخلاص والخدم

وما ظننتك تنسى حق معرفتي
إن التعارف في أهل النهى ذمم

ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من
ود ، وان أجلب الاعداء ، ينصرم

لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم
حتى استوت عندك الانوار والظلم

باعوك بالبخس يبغون الغنى ، ولهم
لو أنهم عدموك الويل والعدم

والله ما نصحوا فيما استشرتهم
وكلهم ذو هوى في الرأي متهم

كم حرفوا من مقال في سفارتهم
وكم سعوا بفساد ضل سعيهم

أين الحمية والنفس الأبية إذ
ساموك خطة خسف عارها يصم

هلا انفت حياء أو محافظة
من فعل ماانكرته العرب والعجم

أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة
ولم يرو سنان السمهري دم

وكنت أحسب من والاك في حرم
لا يعتريه به شيب ولا هرم

وان جاركم جار السموأل لا
يخشى الاعادي ولاتغتاله الذمم
وما طمان بأولى من أسامة بال
ـوفاء لكن جرى بالكائن القلم
هبنا جنينا ذنوبا لا يكفرها
عذر ، فماذا جنى الأطفال والحرم
القيتهم في يد الافرنج مبتغيا
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم
هم الاعادي وقاك الله شرهم
وهم بزعمهم الأعوان والخدم
إذا نهضت إلى مجد تؤثله
تقاعدوا ، فإذا شيدته هدموا
وإن عرتك من الأيام نائبة
فكلهم للذي يبكيك مبتسم
حتى اذا ما انجلت عنهم غيابتها
بحد عزمك وهو الصارم الخذم
رشفت أجن عيش كله كدر
ووردهم من نداك السلسل الشبم
وإن أتاهم بقول عنك مختلق
واش فذاك الذي يحبى ويحترم
وكل من ملت عنه قربوه ، ومن
والاك فهو الذي يقصى ويهتضم
بغيا وكفرا لما أوليت من منن
وموقع البغي لولا جهلهم وخم
جربهم مثل تجريبي لتخبرهم
فالرجال إذا ما جربوا قيم
هل فيهم رجل يغني غناي إذا
جلى الحوادث حد السيف والقلم

أم فيهم من له في الخطب ضاق به
ذرع الرجال يد يسطو بها وفم

لكن رأيك أدناهم وأبعدني
فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وما سخطت بعادي إذ رضيت به
ولا لجرح إذا أرضاكم ألم

واست آسى على الترحال من بلد
شهب البزاة سواء فيه والرخم

تعلقت بحبال الشمس من كبدي
ثم انثنت وهي صفر ملؤها ندم

لكن فراقك آساني وآسفني
ففي الجوانح نار منه تضطرم

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي
وكل ما نالني من بؤسه نعم

فلما وقف عليها معين الدين ألزم الاديب أبا الثناء محمود بن نعمة بن رسلان الشيزري ، حتى أجاب عنها بأبيات أولها :

ياظالما ناره في القلب تضطرم
مهلا ! فلحظك تغشى نوره الظلم

كأنك القوس تردي وهي صارخة
وما ألم بها من غيرها ألم

تجني وتلزمني ذنبا أتيت به
ووجه غدرك باد ليس ينبهم

وقال(١٠٣) :

للخلق في يوم القيامة موقف
تجزي البرية فيه عن أعمالها

ومطوق الارضين غاصب حدها
فليهنا من قد حازها بكمالها

وقال :

ياليت أن ديارنا كانت كذا :
طورا تفرقنا وطورا تجمع
لكنها درست وأوحشها الردى
من أهلها فهي القفار البلقع
لايرتجى لهم إياب جامع
أشتاتهم حتى يضم المجمع

وقال :

وسائل الدار عمن كان يملكها
هل آذنت عنهم من بعدهم خبر
فلو أجابت لقالت وهي عالمة
بسيرة السلف الماضي ومن غبرا
أرتهم العبر الدنيا فما اعتبروا
فصيرتهم لقوم بعدهم عبرا

وقال :

وما أشكو تلون أهل ودي
ولو أجدت شكاتهم شكوت
مللت عتابهم ويئست منهم
فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارصهم فؤادي
صبرت على أذاهم وانطويت

ورحت عليهم طلق المحيا
كأني ما سمعت ولا رأيت
ولا والله ما أضمرت غدرا
كما قد أضمروه ، ولا ذويت
تجنوا لي ذنوبا ما جنتها
يداي ولا أمرت ولا نهيت
هم نقضوا مواثيقي وعهدي
ولم يوفوا ، وهاأنا قد وفيت
ويوم الحشر موعدنا وتبدو
صحائف ما جنوه وما جنيت

كتبه :

وله عدة مصنفات ، منها : كتاب التاريخ البدري ، ذكر فيه أهل بدر ، وعدتهم ، وأسماءهم ، وأنسابهم ، وأحوالهم . وذكر فيه مغازي النبي صلى الله عليه وسلم وجميع أحواله من أول أمره إلى آخره ، واستقصى ذلك في خمس مجلدات كبار على حروف المعجم .

وكتاب الشيب والشباب ، ذكر فيه الخضاب وما جاء فيه ، ورتبه على سبعة أبواب في كل فصول . وكتاب ملحق به سماه « استدراك المرتاب » .

وكتاب الحنين الى الاوطان . وكتاب أخبار النساء ، بدأ فيه بحواء ، وذكر فيه أم موسى ، ومريم ابنة عمران وأخبارهن ، وأمهات العرب ، والأخوات ، والزوجات ، والبنات المنجبات ، والنساء التي سارت بذكرهن الاشعار ، واستقصى أخبار الجميع وأشعارهن وما قيل فيهن . وكتاب وسائل السائل ، يتضمن الادعية وأوقاتها وماورد فيها . وكتاب المنازل والديار . وكتاب نصيحة الدعاة . وكتاب الاشارة . وكتاب زجر عمرو بن بحر الجاحظ ، فيه النهي عن الزنا واللواط والفواحش . وكتاب أزهار الازهار ، فيه

صفة الجنة ومنافع اللبن ومضاره . وكتاب العصا ، فيه ذكر عصا موسى عليه الصلاة والسلام ، وما جاء في العصا . وكتاب الذوم والاحلام . وكتاب التأسي والتسلي . وكتاب فضائل الخلفاء الراشدين . وكتاب المحاسن . وكتاب نزهة الناظر في إملاء الخاطر ، وكتاب ردع الظالم ورد المظالم ، وكتاب الاعتبار ، وكتاب تاريخ ذكر الحوادث من أول الهجرة إلى زمانه مختصرا ، وكتاب لباب الآداب ، وكتاب مكارم الاخلاق ، في عشرين مجلدة ، صنفه في مدة عشر سنين ، مدة مقامه بمصر ، وكتاب المنتخب من أشعار العرب ، وكتاب المختار من محدث الأشعار ، وكتاب المماثلة في الشعر ، وكتاب معونة المساعد على حصر الشواهد ، في الشعر أيضا ، وكتاب الأقسام ، في الشعر أيضا ، وكتاب أمان الخائفين ، في الزهد ، وكتاب الديرة والحصون ، وكتاب فيه شعر جماعة سأله ابن الزبير عنهم ، وكتاب المكارم والكرم ، ورعاية الذمم ، وكتاب الفرق ما بين المحبة والهوى ، وكتاب زور أبي العلاء ، وكتاب ضربة الولاء ، وكتاب اختيار شعر أبي تمام ، وكتاب التجارة المربحة ، وكتاب مختار شعر أبي نواس .